

عيد الأضحى بالغرب الإسلامي خلال العصر الوسيط من زاوية تاريخية أنثروبولوجية
The Feast of Sacrificial in the Islamic West during the Medieval Period
from an Anthropological Perspective

محمد ناصري*

المدرسة العليا للأساتذة ببيشار

Mohammed.Naceri@ensbechar.dz

تاريخ القبول: 2025/12/12

تاريخ الاستلام: 2025/09/10

ملخص:

يبرز المقال أهمية دراسة عيد الأضحى في الغرب الإسلامي خلال العصر الوسيط باعتباره مدخلاً لفهم الذهنيات والبنى الاجتماعية والثقافية، وليس مجرد طقس ديني. ورغم القيمة الرمزية والاجتماعية للأعياد، فقد همشها المؤرخون واعتبروها من قبيل “اللاحدث”، ما دفع الباحثين إلى استنطاق مصادر بديلة كالنوازل والأزجال والتراجم. ويظهر عيد الأضحى كحدث يجمع بين الديني والاجتماعي، إذ ارتبط في الوعي الجمعي أكثر بالفرحة المادية المتمثلة في تناول اللحم النادر، ما جعل شراء الأضحية هماً أساسياً للأسر. وقد عبرت النصوص عن الضغوط الاجتماعية على رب الأسرة لتوفير الأضحية، حتى لو أدى ذلك إلى الاستدانة أو اللجوء إلى طرق غير مشروعة، ما أفرغ الشعيرة من بعدها الديني الصرف. كما كشفت الأزجال والأمثال الشعبية عن حضور قوي للأضحية في الثقافة اليومية، بما يعكس رمزية الكبش ووقعه في الخيال الجمعي. واحتلت الأسواق والزرائب مكانة محورية في التحضير للعيد، مع عناية الناس بمواصفات الأضحية المثالية. وتناول المقال أيضاً طقوس الذبح والذهاب للمصلى، وحضور السلطان، وما صاحب ذلك من عادات كالذبح في البيوت أو لدى الجزارين. وأشار إلى ممارسات اعتبرها الفقهاء بدعاً، مثل زيارة القبور في يوم العيد أو المبالغة في الزينة. كما فصل في طرق طهي اللحم وحفظه عبر القديد، مما يؤكد الطابع الاقتصادي للاحتفال. ويخلص المقال إلى أن عيد الأضحى كان مناسبة كاشفة عن التوازن بين التدين والمظاهر الاجتماعية، وأن العديد من ممارساته استمرت في المغرب العربي إلى اليوم. الكلمات الدالة: عيد الأضحى، الغرب الإسلامي، ابن قزمان، الأضحية، الشعائر.

Abstract:

The article highlights the importance of studying Eid al-Adha in the medieval Maghreb as a key entry point to understanding mentalities and socio-cultural structures. Despite its symbolic and social significance, medieval historians marginalized the feast, considering it a “non-event,” which pushed researchers to consult alternative sources such as legal fatwas, zajal poetry, and biographical dictionaries. Eid al-Adha emerges as an occasion that blends the religious with the

*المؤلف المرسل: محمد ناصري، Mohammed.Naceri@ensbechar.dz

social, being associated in popular consciousness more with the material joy of consuming rare meat than with its purely religious dimension.. It further details the cooking and preservation of meat, underscoring the economic dimension of the celebration. In conclusion, Eid al-Adha appears as a revealing occasion where religiosity intertwined with social customs.

Keywords: Eid al-Adha; The Islamic West; Ibn Quzman; The sacrificial animal; rituals.

مقدمة

يعد موضوع الأعياد في الغرب الإسلامي خلال العصر الوسيط من بين القضايا البحثية الجديرة بالاهتمام والعناية، إذ يتجاوز مجرد كونه مظهراً احتفالياً إلى كونه مدخلاً أساسياً لفهم البنية الذهنية والثقافية لمجتمعات العصر الوسيط. فدراسة الأعياد لا تقتصر على توصيف الطقوس والشعائر فحسب، بل تسمح بالكشف عن منظومة القيم الاجتماعية والدينية والرمزية التي كانت تحكم حياة الأفراد والجماعات، وتبرز في الوقت ذاته طبيعة العلاقات بين السلطة السياسية والمؤسسة الدينية من جهة، وبين السلطة والمجتمع من جهة أخرى. كما أن الاهتمام بهذا الموضوع يندرج في إطار ما يسمى بالتأريخ للذهنيات أو التاريخ الاجتماعي والثقافي، وهو اتجاه حديث نسبياً في الكتابة التاريخية، يسعى إلى تجاوز الطابع التقليدي الذي كان يربط التاريخ بالحدث السياسي والعسكري فحسب، ليشمل دراسة الممارسات اليومية، والعادات، والتصورات الجماعية التي تتميز بها المجتمعات الوسيطة. ومن هذا المنظور، فإن الأعياد تمثل مرآة تعكس صورة المجتمع في تفاعلاته، وتظهر ما يحمله من أنماط التدين، وأساليب الاحتفال، وأشكال التضامن، فضلاً عن كونها تكشف عن التباينات بين الطبقات الاجتماعية، وما يتخللها من رمزية سياسية وسعي إلى إضفاء الشرعية على الحكم القائم.

بل وتعدى الأمر إلى النيش في التاريخ الاجتماعي والاقتصادي، وبإلقاء نظرة على ما كتب حول هذا الموضوع، نجده لا يتجاوز عدد أصابع اليد الواحدة، قد يعزى ذلك إلى الصعوبة التي يلاقيها الباحث في هذا الموضوع والمتمثلة في قلة المعلومات الخاصة بالأعياد في الحوليات التاريخية، التي لم تستوف هذا الموضوع حقه من الإهتمام.

بالرغم من الأهمية التي تحتلها الأعياد في منظومة الحياة الاجتماعية، باعتبارها لحظات فرح وابتهاج تستحق التوثيق؛ فإن الباحث يجد العكس، ذلك أن معظم المؤرخين أحجموا عن ذكر الأعياد الدينية الخاصة بالمسلمين، كعيد الأضحى والفطر، واعتبروها من باب اللاحث، وصنفوها في خانة المهمش من الرزنامة السنوية. ومن ثم، غابت عن وعي المؤرخ بوصفها موضوعا لا يقتضي منه عناية أو تدوين تاريخيا. ويمكن اعتبار أن طبيعة الحديث عن الأعياد، بما تكتسبه من صبغة إجتماعية ترتبط ارتباطا وثيقا بالمجتمع، جعل المؤرخ يغض الطرف عنها لارتباطه أكثر بالبلاط وزخم الحدث السياسي.

وقصد تجاوز هذا التهميش لهذه المناسبات الدينية، وتسليط الضوء على عادات وتقاليد ساكنة الغرب الإسلامي في العصر الوسيط في عيد الأضحى، ورمزية هذه المناسبة في ذهنياتهم، وجب على الباحث توسيع دائرة القراءة المصدرية والتنقيب في المصادر الدفينة، التي لم يقصد من كتابتها أنها للتاريخ مثل كتب النوازل والأزجال وكتب التراجم والمناقب والدواوين الشعرية التي ضمت أخبارا ومعلومات متناثرة بين صفحات هذه المصادر، وعلى قلتها وندرتها إلا أنها في غاية الأهمية، حيث تتيح لنا إمطة اللثام عن عيد الأضحى بالغرب الإسلامي خلال العصر الوسيط، ومشاعر الساكنة في هذا اليوم، ورمزية خروف العيد في ذهنياتهم، ومختلف العادات والتقاليد التي كانوا يمارسونها في هذه المناسبة.

أولا: شراء الأضحية

تبين لنا بعض الأخبار المتناثرة في مختلف المصادر، أن عيد الأضحى احتل حيزا هاما في ذهنية مجتمع الغرب الإسلامي، باعتباره مناسبة دينية تستوجب الفرح والابتهاج بها، وأيضا يمكن تفسير هذا الإهتمام بطبيعة هذا العيد الذي يعد فرصة لتناول اللحم، فالفرحة هنا يغلب عليها الشق المادي على الشق الديني باعتباره فرصة لإشباع البطن باللحم الذي يمثل في ذهنية الناس مادة غالية مستعصية على الفقراء.

فشراء كبش العيد مثل مطلبا مستعصيا لدى شرائح عديدة من المجتمع بسبب غلاء أسعاره، وهو ما كان يسبب إحراجا كبيرا لرب البيت الذي لا يسلم تفكيره من البحث عن سبيل لشراء أضحية العيد، فيجد نقدا من الزوجة والأولاد وإصرارهم عليه بتوفير كبش للعيد، ويصور لنا ابن مريع الأزدي سلوك زوجته بخصوص شراء أضحية العيد "فقمت عنها وقد لوت رأسها وولولت وابتدرت وهولت وجالت في العتاب ووصلت وضمت بنتها وولدها وقامت باللحج والانتصار بالحجج أودها" (ابن الخطيب، ج3، 1973، ص427) وذكر ابن الزيات أن زوجة أبي عبد الله التاودي دفعت إليه غزلا لبيعه وشراء أضحية للعيد، فلما

كان في طريق عودته للبيت ومعه الحمل يحمل الخروف، وجد في طريقه امرأة وزوجها يتنازعان بسبب الأضحية، فالزوج لم يكن له مال، والزوجة تصر عليه بشرائها فممنحهما أضحيته (ابن الزيات التادلي، 1997، ص 274-275). كما منح أبو يعزى أضحية للحاج بن عاصم (ابن الزيات التادلي، 1997، ص 218)، وذكر ابن مرزوق أن الشيخ أبي علي حسين بن الجلاب أعطى رجلا ربع دينار ليشتري له بها أضحية، غير أن هذا الثمن لا يوجد به ما طلب. (محمد بن مرزوق التلمساني، 2008، 162)

ومنهم من كان يلجأ للأولياء والمتصوفة، فقد سأل أحد الفقراء الولي أبي يعقوب تصولي بن وابوسكت الحاسبي ثمن أضحية (ابن الزيات التادلي، 1997، ص 131)، أما هؤلاء الأولياء والمتصوفة، فقد بينت كتب التراجم والمناقب أن المجتمع كان يقدم لهم أضحياتهم باعتبار أن معظمهم كان متفرغا للعبادة، فقد ذكر أبي الحجاج يوسف بن موسى الكلبي الضرير أن أضحية العيد تأتيه كل عام من أحد إخوانه في الله (ابن الزيات التادلي، 1997، ص 106).

واضطرب بعضهم اللجوء إلى السرقة من أجل أن يجبي سنة (ابن الزيات التادلي، 1997، ص 234) وهو ما نتج عنه سلوك اجتماعي صنّفه ابن الحاج في خانة البدع، فبدل أن تشتري الأضحية تطبيقا لسنة، تحولت لتعبر عن استجابة لعادات إجتماعية، بمعنى أنها خرجت من فعل الاستجابة الدينية إلى الإستجابة الإجتماعية، فرغم أن الشريعة أباحت ترك النحر لمن عسر عليه ثمن الأضحية، فإن الفقراء حرصوا عليها تجنباً للقليل والقال، وعبر ابن الحاج عن ذلك بقوله "وإذا قلت للفقير من أهل المغرب لم تتكلف الأضحية وهي لا تجب عليك، فيقول قبيح من الجيران والأهل والمعارف أن يقولوا فلان لم يضح، فصارت هذه القربة بالنظر إلى فعلها وتركها مشوبة بالنظر إلى الخلق وتحسينهم وتقبيحهم." (ابن الحاج، ج 1، د.س، ص 284). وهو ما يبين البعد الأنثروبولوجي المتمثل في انتقال الأضحية من مجالها الأصلي كعبادة وشعيرة دينية إلى مجال اجتماعي رمزي تتحكم فيه الأعراف وضغط الجماعة أكثر مما تتحكم فيه النصوص الشرعية. فالأضحية التي كان المقصود منها التقرب إلى الله، تحولت في السياق المغربي خلال العصر الوسيط إلى وسيلة لاثبات الانتماء للجماعة وتجنب الوصم الاجتماعي، إذ يصبح الامتناع عن النحر عيبا يستجلب القيل والقال وفقدان المكانة. وهنا نلمس ما يسمى بالقسر الاجتماعي، حيث يضطر الفرد الفقير إلى التضحية بمصلحته الاقتصادية، بل قد يلجأ إلى الاستدانة أو السرقة حفاظا على شرفه الرمزي أمام الجيران والمعارف. هذا التحول يبرز ازدواجية الشرعية بين ما تسمح به الشريعة من ترك الأضحية في حال العسر، وما تفرضه

الأعراف من إلزام اجتماعي يجعل الممارسة أقرب إلى العادة منها إلى العبادة. وبذلك تصبح الأضحية لغة رمزية للتواصل الاجتماعي ومؤشرا على الهوية الجماعية. وللتوضيح أكثر لا يمكننا والحال هذه في إطار محاولة رصد وتحديد مقاربة أنثروبولوجية لمكانة عيد الأضحى في ذهنية مجتمع الغرب الإسلامي، دون المرور على كتب الأزجال والأمثال الشعبية، بالنظر إلى تعبيرها عن المجتمع فكانت لسان حال لما يجول في فكره وخاطره، ويبدو جليا أن ابن قزمان بحكم معاشته للمجتمع ومعرفته بعاداته وتقاليده وأنماط تفكيره، قد استخلص من هذه المعاشة هذه الأزجال التي صورت لنا ذهنية المجتمع، ونظرته لأضحية العيد، وعلى أساس هذا المنطلق فإن مجتمع الغرب الإسلامي قد غلب عليه الجانب المادي من الأضحية، وبهذا الصدد لا مناص من أن نمتح شذرات أمدنا بها ابن قزمان، حيث يوضح في أحد أزجاله نفس المنطلق بقوله:

كبش باسم الضحية

يشتره كل مرما

فهو ظاهر الله

والقصد فرح الأولاد (ابن قزمان القرطبي، 1995، ص162)

وتؤكد مقامة ابن مراع الأزدي بوضوح عن هذه الذهنية، فيذكر على لسان زوجته التي أرادت تقليد جارها، هذه الأخيرة التي اشترت كبش العيد قبل يوم النحر بأيام "فقلت لا غذا لك اليوم عندي ولو أودى بك الصوم حتى تسلم الإستخارة، وتفعل كما فعل زوج الجارة ... قلت وما فعل قريني، وأرني من العلامة ما أحببت أن تريني، قالت إنه فكر في العيد ونظر في أسباب التعييد" (ابن الخطيب، ج3، 1973، ص426). وعلى هذا، كان كلما استهل شهر ذو الحجة من كل سنة حتى تصبح أضحية العيد حديث الساعة، بدليل أنه حظي بنصيب وافر من الأمثال والأزجال والأبيات الشعرية التي خصت عيد الأضحى والأضحية بنصيب وافر، ولعل هذا الإهتمام يعبر عن قيمة وأهمية هذه المناسبة الدينية في مجتمع الغرب الإسلامي، فابن قزمان يعبر عن ضرورة شراء كبش العيد وربطه بالفرحة بقوله:

يا من إذا ريت جاني فرحي

لابد من كبش ما نضحني (ابن قزمان القرطبي، 1995، ص42)

ويوصي في مقام آخر بضرورة التفكير بأضحية العيد منذ عاشوراء، حتى لا يخرج نفسه وقت الضيق، ويبدو من خلال قوله، أنه كان يتم اللجوء لطرق ملتوية للحصول على الأضحية، وتعتبر لنا أيضا أن الهدف كان شراء الأضحية سواء كان ذلك بطرق مشروعة أم غير مشروعة:

من أول العاشور فكر في عيدك

الحيل وقت الضيق لس تفيدك (ابن قزمان القرطبي، 1995، ص 261)

كما عبر أبو بكر أحمد بن محمد الأبيض في أبيات عن غلاء أضحية العيد وبعد المنال في شرائها بقوله:

أنتك الخمر باعيد الأضحى كأن شعاعها قبس مليح

وقد أعددت ذبحا كريما ليومك والزمان به شحيح

لو يفدي به قوم عثمان قوم لكان لهم به الثمن الريح (صفوان ابن ادريس

التجبي، 1939، ص 67-68)

ويستجديه أيضا ابن قزمان مايين معاناة المجتمع:

حبيبي كبش العيد أنا حرملك لس تصطحي " تنفر ؟ ارحم حبيبي (ابن قزمان، 1995، ص 261)

كما بين حجم معاناة رب الأسرة في هذه المناسبة:

واش يقاسي الإنسان

من حرارة في الأعياد

بالخروج للمصلى

تنطفي ذي الحرارة (ابن قزمان، 1995، ص 162)

وإذا كان الفقراء يصرون على شراء الأضحية رغم قلة ذات اليد، فإنه وعلى العكس من ذلك أثر الكثير ترك سنة الأضحية، رغم قدرتهم على ذلك فابن الحاج رصد ذلك على أنه بدعة، لأن عيد الأضحى الذي هو أعظم مواسم المسلمين (ابن الحاج، د.س، ص 283) وبذل ذلك يشترون اللحم بثمن كئيب الأضحية تجنباً لمشقة الذبح. (ابن الحاج، د.س، ص 283).

وجرت العادة أن تنصب الأسواق والزازب المخصصة لبيع الأضاحي كما يقول ابن قزمان:

من غدا يرشم السور والزازب تسمر

كل ما يبقى للعيد أربع أيام لا أكثر (ابن قزمان، 1995، ص 248)

كما كان الناس يحرصون على ارتياد مختلف الأسواق المخصصة لبيع الأضاحي، والمرور على كل الباعة "واخترق الأسواق، واقتحم زريبة بعد زريبة، وأختبر منها البعيدة والقريبة" (ابن الخطيب، ج3، 1973، ص427) حتى يجدوا أضحية بمواصفات معينة، وبأثمان مناسبة. كما حظي شكل الأضحية بعناية خاصة من الناس في إختياره لاعتبارات إجتماعية أكثر منها دينية، وقد ترك لنا ابن قزمان مجموعة من المواصفات المحبذة من طرف الناس فكش أقرن وسمين أبيض طيب مبارك ورطب خفيف نافع وفاري وسمين جيد وكبير (ابن قزمان، 1995، ص249).

كما اعتبر التيس أردأ الأضاحي، فقد كان الطلب على الخروف أكثر حيث، رفضت زوجة ابن مراع التيس الذي اشتراه "ومتى تفرح زوجتك والعنز أضحيتك" (ابن الخطيب، ج3، 1973، ص431) كما قال الزهري عن التيس أنه "معيب لا يجزئ في الأضحية" (المقري، ج3، د.س، ص383). واتباعا للسنة حرص الناس على شراء أضحية سليمة من العيوب والتدقيق فيها حيث سئل السيوري عن جواز الشاة القصيرة للنحر فكان جوابه جوازها لذلك (الونشريسي، ج2، 2011، ص27).

جرت العادة أن يتسوق الناس في أسواق الماشية المخصصة لبيع الأضاحي والزرائب التي تنصب خصيصا لذلك اعتبارا للإقبال الكبير الذي تشهده مع قرب يوم العيد فيسومون الأضاحي من بائع لآخر:

يوم منا يخرج الناس

وترى الزحم في الصف

امش من كبش لآخر

هذا كبش مكثف

كم شرا ذا؟ ازن اخذ

ويتقلب ويغرف (ابن قزمان، 1995، ص249)

كان وقت التسوق يستغرق معظم اليوم ما يبين كثرة الباعة، فقد تسوق ابن مراع ثلثا يومه بحثا عن أضحية للعيد "حتى انقضى ثلثا يومي وقد عييت بدوراني وهومي" (ابن الخطيب، 1973، ص427) ولم تكن الأضاحي تباع في الأسواق فقط بل حتى الجزارين كانوا يبيعونها، فابن مراع الأزدي اشترى أضحيته من جزار "إلى أن مررت بقصاب يقصب في مجزره" بل ووجد زحاما عنده فاقتحمت المزدحم أنظر مع من نظر واختبر فيمن اختبر" (ابن الخطيب، ج3، 1973، ص427-428).

أما فيما يتعلق بأسعار الأضاحي، فمن خلال ما تبين في المصادر أن أسعارها كانت باهضة ومستعصية على الطبقات العامة، وخاصة حين يقرب العيد حيث تزداد أثمانها ارتفاعاً، وإلا لما شكلت حاجساً لدى المجتمع إذا كان اقتنائها بالأمر اليسير ولما دعا التفكير الجمعي بالتبكير في شرائها ولما استجدها الشعراء في دواوينهم، ولا الرجالين في أزجالهم، ومن بين طرق البيع المنتشرة نذكر المقايضة فقد سئل عبد الرحمن الواغليسي بخصوص شاة الأضحية إذا اشترت بالدرهم ثم عدت الدراهم وجواز أن تعطى قيمتها طعاماً، فأجاز المفتي ذلك (الونشريسي، ج2، 2011، ص31-32)، ويبدو أن هذه الصيغة كانت منتشرة بكثرة في البوادي بحكم أن سكان البادية يلجؤون كثيراً لسلوك الإدخار تحسباً للجوائح، كما انتشرت صيغة البيع بالأجل، وهي أن يقضي المشتري ثمن الأضحية في فترة معينة يتفق عليها البائع والمشتري "قال تضمن لي فيه عشرين ديناراً أقبضها منك لانقضاء الحول دينراً دينراً" (ابن الخطيب، ج3، 1973، ص428) على أن يوثق ذلك عند الموثق ضماناً لحق البائع (ابن الخطيب، ج3، 1973، ص428).

كما جرت العادة أن يستأجر المشتري حملاً لينقل له أضحيته إلى البيت:

واحمل على حمال والقيه في دارك (ابن قزمان، 1995، ص261)

ويحرص المشتري على مراقبته على طول الطريق إلى البيت حتى لا يغفل عنه فيسرق له أضحيته مثلما صور لنا ذلك ابن قزمان في إحدى أزجاله:

ساق حمال لعنقه

بهدير إياك إحذر (ابن قزمان، 1995، ص249).

وجرت العادة مع كل عيد أن يشتري الناس حاجات جديدة للبيت وأواني وأدوات تتعلق بالأضحية مثل السكين والحبل، واعتبر شراء الحوائج مرادفاً لشراء الأضحية إذ في عرف الناس لا يصح أحدهما دون الآخر:

العيد هو أعطني من نصيبك

شرا حوايج علي من السوق (ابن قزمان، 1995، ص158).

العيد قريب هو وحسبك ماترى

من قرب ذا العيد

والعرف في كل موسم قد جرى

بإصلاح وتحديد

ولا غنى من حوايج فيه للشر
وما يكون جيد
فنشتري على مقداري
أشيا لداري (ابن قزمان، 1995، ص 233-234)

ثانيا: ذبح الأضحية

جرت العادة أن يبكر الناس إلى المسجد لأداة صلاة العيد، على أن بعض المناطق عرفت بعض الإستثناءات، فقد ذكر الجغرافي البكري أنه بقرب مدينة طبة "يوجد غدير يجري في مصلى العيد وهو ما يستنتج منه أن صلاة العيد كانت تقام خارج المسجد" (البكري، 1857، ص 51) ويستمعون لخطبة الإمام، والتي غالبا ما تكون حول المناسبة حيث كان الأئمة يحرصون على تهذيب الخطبة، ليكون لها واسع التأثير على المصلين، والغالب أن خطبة العيد كانت تتكرر نفسها كل سنة، فقد ذكر الخشني أن النضر بن سلامة الكلابي كانت له خطبة أخرى في الأعياد حسنة مهذبة مشتملة على السنة (الخشني، 1994، ص 134).

ويبدو أن صلاة العيد كان يحضرها السلطان حيث كان المسجد يخضع لترتيبات خاصة، فتحجز الصفوف الأولى للسلطان وحاشيته، في حين تجعل سترة بينه وبين العامة لتكون فاصلا بينهم، وكانت هذه الترتيبات ترجع بعض الأئمة، مثلما هو الحال مع الإمام يحيى بن معمر الإلهاني، الذي أمر بتقديم السترة حتى قرب سواد الناس من الإمام فقام وخطبهم (الخشني، 1994، ص 75).

بعد تأدية صلاة العيد، يتوجه الناس إلى بيوتهم لذبح الأضحية، على أن بعض النوازل أبانت عن استشكل في توقيت الذبح، فبعض المناطق كان يقوم الإمام بعد صلاة العيد فيخرج أضحيته ويدبجها أمام المصلين لينصرفوا بعد ذلك، نظرا لأن بعض المصلين يسبقونه إلى بيوتهم فينحرون قبله، لأن الاستشكل كان حول من هو الإمام الذي تنحر الأضاحي بعده هل هو إمام الصلاة أم الإمام الذي تؤدي إليه الطاعة أي الحاكم، (الونشريسي، ج2، 2011، ص 28) وقد كان الجواب أن المقصود هو إمام الصلاة، غير أنه في نازلة أخرى سئل فيها بعض التونسيين بنفس السؤال، فكان جوابهم بأن المقصود هو الحاكم ذلك أنه في بلاد إفريقية في البلد الذي فيه الإمام الذي تؤدي إليه الطاعة أن يكون المعتر ذبح السلطان (الونشريسي، ج2، 2011، ص 31).

بيد أن النوازل السابقة إن دلت على شيء فإنما تدل على ذهنية سائدة في المجتمع متمثلة في التلهف إلى الأضحية والمسارة في ذبحها:

كندبحه قبل كل جزار

وإنما لس يحل لي ذبحي (ابن قزمان، 1995، ص 42-43)

تراعى مجموعة من الشروط لنحر الأضحية على أتم وجهه، والتي أبانت نوازل الفقهاء على أن مجتمع الغرب الإسلامي كان يحرص عليها، من ذلك حلق الشعر وتقليم الأظافر، حيث سئل ابن لب عن جواز ذلك للمضحى، (الونشريسي، ج2، 2011، ص 31) أما عند النحر فقد طرحت كتب الحسبة مجموعة من الشروط للذبح، من ذلك أن يذبح من يوثق بعلمه ودينه، وحد الشفرة لإحسان النحر والرفق بالأضحية وصرفها باتجاه القبلة وقلبها على الشق الأيسر وتجنب النفخ في الشاة بعد سلخها لأن ذلك يغير طعمها. (ابن عبد الرؤوف، 1955، ص 93-94).

كان البعض من الناس يسبق الذبح ليلة العيد (ابن الحاج، ج1، د.س، ص 283) وإذا كانت السنة قد أوصت بأن يأكل المضحى من كبدة الأضحية تيمنا بما فعله النبي صلى الله عليه وسلم، فإن البعض تركها وبدل ذلك كانوا يصنعون الطعام ليلة العيد، حتى إذا جاؤوا من الصلاة يجلسون لتناوله ثم ينحرون الأضحية، ولهذا الأمر كان منهم من يسبق الذبح ليلة العيد، ويوضح هذا الفعل أن نحر الأضحية كان يمثل مشقة في نظر بعض الناس.

وإذا كان البعض يتوجه مباشرة لذبح أضحيته، فإن منهم من كان يزورون موتاهم في المقابر، وهي من العادات المنتشرة في عيد الأضحى:

كل وجهها مزين ليلة العيد هو بره

والبكاء بالمقابر على الأحباب ذمره

احتفال الفجائع فاحتفال المسرة

ودموع الترحم في ثياب الشطارة (ابن قزمان، 1995، ص 163)

وتكون الزيارة من طرف الرجال والنساء، حيث يتبرجن بكامل زينتهن باعتبار يوم العيد ويخرجن إلى المقابر، وهي من البدع التي زجر عنها العلماء، حيث يقول عنها ابن الحاج "وفي زيارة القبور في غير هذا اليوم من البدع والمحرمات ما تقدم ذكره في زيارة القبور فكيف به في هذا اليوم الذي فيه النساء يلبسن ويتحلين ابتداء

ويتجملن فيه بغاية الزينة مع عدم الخروج، فكيف بمن في الخروج في هذا اليوم فتراهن يوم العيد على القبور متكشفات قد خلعن جلباب الحياء عنهن". (ابن الحاج، ج1، د.س، ص286).
كما كانت تحدث بعض المشاكل في الأضحية، كأن تموت ليلة العيد، حيث سئل سيدي قاسم العقباني "عن رجل اشترى شاة بنية الضحية في أيام العيد فلما كانت ليلة العيد مرضت وخيف عليها فذبحت هل لربها بيع لحمها أم لا" (الونشريسي، ج2، 2011، ص33).
وأما فيما تعلق بنحر الأضحية، فكان الناس يذبحونها في بيوتهم وفي بعض المناطق كانت تخصص أماكن للنحر مثل حومة المذبح ببجاية (أبو العباس الغبريني، 1979، ص45) ومن لا يجيد النحر يأخذها إلى الجزار لينحرها له:

فزعت يا جزار إذا حد أذنيه

خذ الطول واربط على إديه ورجليه

ورد للقبلة وسد عينيه

وابرك على صدره والقي حديدك (ابن قزمان، 1995، ص261)

واحتفظت لنا أزجال ابن قزمان تفاصيل حول ذبح الأضحية في بيت الغرب الإسلامي، فيصور لنا استعصاء الأضحية على الذبح نظرا لكبر حجمها بقوله:

خذت سكين وأنا بعد نحري

إذ قد أمسك فقد عسر يسري (ابن قزمان، 1995، ص359)

وبخصوص رأس الأضحية واستعصاء فصله عن الجسد يقول:

لانسيت كبشا أقرن من ضحية عمول

لو جعل الراس في الحيط لاسييل أن يزول

قال لي جزار وثاني كف وكف أن يحول

إن ذا يا أخي معلوف برذلو كا مزنطر (ابن قزمان، 1995، ص249)

وقد يجد أضحيته على غير المأمول:

جيت لسلخه فلم نجد له كراع

وسلخته بيدي في الموضع

والجليد يتخلف ويتقطع (ابن قزمان، 1995، ص 358)

في عذاب كنت ماع إذ ينسلخ

عيني يدمع وقلبي يعمل أخ

ويقول من صلاب لس نطبخ

ولا نقلى فوفر الفلفل (ابن قزمان، 1995، ص 358)

وبعد سلخ الأضحية يستخرج أحشائها مع الشحم:

صبت أبيض قلت أصبي أعزم

ار قصيرة فش يكون ذا الشحم (ابن قزمان، 1995، ص 359)

أما تشويط رأس الأضحية فقد ذكر ابن قزمان أنه كانت تخصص له حفر منتشرة في كل الحارات والدروب، حيث توقد بالنار ويشوط فيها.

جرت العادة أن تطهى أصناف الأطباق التي يكون اللحم فيها حاضرا دوما فمن بين ما يطبخه الناس في هذا العيد نذكر "خبز محزز" (ابن قزمان، 1995، ص 248) و"طعاما محمر" (ابن قزمان، 1995، ص 248) وأيضا شواء اللحم، حيث يقبل على أكله بشهية كبيرة "ونصف ونكل من شوي حتى نشبع" (ابن قزمان، 1995، ص 163) وأيضا "فلايا غرنوق" (ابن قزمان، 1995، ص 43) ، وهو شواء أو قلبي أحشاء الخروف و"رويس ثريد" (ابن قزمان، 1995، ص 43) و"القديد المشرح" (ابن قزمان، 1995، ص 250) ويستمر أكل اللحم حتى اليوم الثالث من العيد:

من يراني ثالث العيد وترى كبشي معلق

وأنا نقطع ونشوي والقطيطش تحت يعوي (ابن قزمان، 1955، ص 284)

ومن بين الطرق المعتادة في حفظ اللحم هو تقطيعه في شكل شرائح وتعليقها لتجف حتى تبقى لمدة أطول "ومن قديده ننشر في سطحي" (ابن قزمان، 1995، ص 43)

خاتمة:

ختاما نستطيع القول أن عيد الأضحى بما يمثله من مناسبة دينية واجتماعية في نفس الوقت، قد وجد اهتماما كبيرا به من طرف ساكنة بلاد الغرب الإسلامي، بما ينطوي عليه من مصاريف تتمثل في شراء الأضحية التي شكلت هاجسا وتحديا للظفر بشراءها، حيث اهتمت الساكنة بهذه الشعيرة من المنظور

الإجتماعي أكثر من المنظور الديني، وبحكم نظرية الزمن الطويل، فإن العديد من الممارسات المرتبطة بعيد الأضحى لازالت منتشرة في ذهنية ساكنة المغرب العربي في الزمن الراهن.

قائمة المراجع:

- 1- أحمد المقرئ، (د.س)، نفع الطيب، بيروت، دار صادر.
- 2- البكري، (1857)، المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، الجزائر، نشره دوسلان.
- 3- ابن الحاج، (د.س)، المدخل، القاهرة، مكتبة دار التراث.
- 4-، (1994)، قضاة قرطبة وعلماء إفريقية، القاهرة، مكتبة الخانجي.
- 5- ابن الخطيب، (1973)، الإحاطة في أخبار غرناطة، القاهرة، مكتبة الخانجي.
- 6- ابن الزيات التادلي، (1997)، التشوف إلى رجال التصوف وأخبار أبي العباس السبتي، الرباط، منشورات كلية الآداب.
- 7- صفوان ابن إدريس التجيبي، (1939)، زاد المسافر وغرة محيا الأدب السافر، بيروت، د.ط.
- 8- أبو العباس الغبريني، (1979)، عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء بعد المائة السابعة ببجاية، بيروت، دار الآفاق.
- 9- ابن عبد الرؤوف، (1955)، رسالة في الحسبة، القاهرة، المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية.
- 10- ابن قزمان، (1995)، إصابة الأغراض في ذكر الأعراض، القاهرة، المجلس الأعلى للثقافة.
- 11- محمد بن مرزوق التلمساني، (2008)، المغرب، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية.
- 12- الونشريسي، (2011)، المعيار المغرب، الجزائر، عالم المعرفة.